الأسرة ومكوّناتها في شعر عمر بهاء الدّين الأميري

The family and its components in the poetry of Omar Baha Al-Din Al-Amiri

د .عبدالله لاطرش
أستاذ محاضر-أ-
المركز الجامعي علي كافي تندوف

الملخص:

الدّيوان الشعري للشاعر السّوري و الإسلامي الكبير عمر بهاء الدّين الأميري ثري متنوّع المجالات والمواضيع، فكما تحدّث في الشعر الإلهي والمدح النبوي، تحدّث عن الوحدة العربية الإسلامية، وتحدّث عن مقوّمات الحضارة وبناء النّهضة، ونجده اهتم بالإنسانية في مواضيع شتّى، أفرد أيضا فضاء واسعا للأسرة ومكوّناتها فتحدّث عن الأب والأم والزّوجة والأبناء فجاء وصفه دقيقا مثيرا لتلك الرّوابط والأوشاج واللحظات التي تعيشها الأسرة في يومياتها.

إنّ عاطفة الشّاعر الصادقة نحو أسرته وحبّه العميق لها، وأيضا تربيته وتكوينه الشخصي الذي يرى أهمية الأسرة السوية والصالحة في بناء المجتمع السليم وأيضا منهجه الفكري والإصلاحي الذي يرتكز على مراتب الإصلاح والتغيير انطلاقا من الفرد إلى الأسرة ثم المجتمع، هو الذي دفعه لتأليف الدواوين الثلاثة أب-أمي-رياحين الجنة احتفاء بالأسرة ورسالتها العظمى

الكلمات المفتاحية: الأميري، شعرالأسرة، أب، أمي، رياحين الجنة.

Abstract:

The poetic poetry of the great Syrian and Islamic poet Omar Bahaa Al-Amir Al-Amiri is rich in a variety of fields and topics. As he spoke of divine poetry and prophetic praise, he spoke about Arab-Islamic unity, and he talked about the foundations of civilization and building renaissance, and we find him interested in humanity in various topics, also singling out a wide space For the family and its components, he talked about the father, mother, wife, and children, so his description is an accurate and accurate description of those ties, tattoos and moments that the family lives in in its diaries.

The poet's sincere passion for his family and his deep love for him, as well as his upbringing and personal formation, which sees the importance of a healthy and good family in building a healthy society and also his intellectual and reformist approach that is based on the ranks of reform and change from the individual to the family and then society, is what motivated him to write the three collections Ab- Mom-winds of paradise to celebrate the family and its greatest message.

Key words: Emiri, family hair, father, mom, the winds of paradise

مقدّمة:

يكفي أن نقف على ما ألّفه الأميري من دواوين شعرية تناولت موضوع الأسرة بإسهاب واهتمام بالغ، فقد أصدر ثلاثة دواوين واضحة العناوين بينّة الدّلالة وهي: (أب)، و(أمي)، و(رياحين الجنة).

فقد ظهر عنده هذا الاهتمام منذ الصّغر، حين كتب لبعض أفراد عائلته مادحا ابنا من أبنائه أو مهنّئا لأخر بنجاحه وتفوّقه أو مهنّئا لعائد من السّفر بالسّلامة، ونجاح المهمّة، أو مسجّلا لحيثيات ذكرى من ذكريات الأسرة أو حدث له قيمته ومغزاه في العائلة.

لماذا كان منه هذا الاهتمام بالأسرة؟ إلى أيّ مدى نعتبر أنّه من القلائل الذين أسّسوا لهذا النوع الشّعري الإنساني؟

سأتتبّع في هذا المقال مظاهر الاهتمام بالأسرة والرّعاية العائليّة عند الشاعر الأميري من خلال الدّواوين الثّلاثة.

أولا-ديوان (أب):

يقول عن الدّيوان:

عشر قصائد من وحي الأبوّة ..
لوحات فيها مكابدة ومعاناة ..
صور وجدانية.. تكاد تكون حيّة...
متعدّدة متجدّدة...
يعيش ألوانها وأكوانها...
كل إنسان أب... و أب إنسان.!
حتّى لقد يظنّ بعض القرّاء...

مسترسلا في التأمّل والإصغاء -وهو مندمج في أجواء القصيدة- أنهّا نظمت فيه، تتحدّث عن أحاسيسه وما يعانيه...

عشر قصائد...عصارات من مشاعر " أب" نحو بنيه، بين الأمل والألم...في السّراء وفي الضرّاء...بين أنس وانقباض..في صفاء وبأساء...في رخاء ...ولأواء ...قلب "أب" "أب"...يترنّم...يتألمّ...يتكلّم "[1]

فهو ههنا يبيّن لنا فكرة الدّيوان ومضمونه، فهي فكرة الأبوّة السّامية والخالصة، الأبوّة الحانية المقدّرة لأمانة الأجيال ومسؤولية إعدادها للقيادة والرّيادة.

يعمّق الفكرة أكثر حيث يقول:

غبّ شعور سماوي....بأنّني أصبحت " أب نسب "

فإحساسي بأنّني " أب" ...مطلق" أب إنسان ...لكل طفل! جدّ إنسان...

أب لكل أب... إحساس عامر...غامر...وكم أتعبني.... وهو يسمو بي....

وكم استشعرت معه بأنّني مرهق!...

تطحنني رحى " الأمانة والتبعة."! مسؤول عن كلّ شيء...مسؤول عهدا...وجهداً...

بإنسانيتي...بعزمي...بشعوري....وبشعري....أكثر من قدرتي...وعمري..[2]

ففي أوّل قصيدة يفتتح بها الدّيوان وقد عنونها "براء" نسبة لولده البكر، حيث يقدّم لها بأنّه قد استعجل بكره، وبعد مجيئه للدّنيا ومضي شهور على ذلك أين اشتدّ عود الصّغير واستقامت حياته تأنّس الشاعر به، وصفت روحه به، فكان ملء قلبه وأمله.

يقول:

يا بسمة بفم الزّمـــان	ودرّة من غير عـــاب
يا زهرة قدسيّة التّكوين..	عابقــة المـــلاب
ما انت إلاّ نعمــة	وافت على غير ارتقــاب
الأهل أنت أنيسهــم	لك ـفي قلوبهم رحـــاب
مهما اتيت فلا جناح	ولا مـلام ولا عتــاب
كم ذا بلّلت ثيابهــم	بــل كـم تخطّيت الثياب
فتضاحكوا..وتلاثمـوك	كـأنّ فعــلتك الصّواب
إن تبتسم.. شـاع السّـرور	..وإن بكيت...البِشر غــاب
وإذا ثغوت بحضن أمّـك	زغــردت فيها الـرّغاب
فإذا رنوت إلـى الثّـدي	تدفّــق الــرّوح المذاب.[3]

لوحة تصويرية راقية، يصوّر فيها أغلب وأهم اللّحظات التي ترعرع فيها براء داخل الأسرة وهو ينظر إليه يكبر أمام ناظريه فتكبر معه الرّغبة في أن يكون له شأن وصاحب مهمّة وهمّة.

يقول في الأبيات الأخيرة:

أبراء! ما في الخلق لي ... من حيلة فذر العتاب
الله قدّر أن تكون ... وحكمه أمر عجاب
لك أن أمدّك يا بنيّ ... وأن أعدّك للغلاب[4]

وهو في الغربة يلازمه طيفهم فلا يبرحه، ويحلّ عليه عيد الفطر بعيدًا عنه فيغرّد بأبيات جميلة يرسلها إليهم كتحيّة للعيد .

يقول:

يامُزَعَ القلب وراء البحار ... في القلب نور من هواكم ونارْ
ذكرتكم في العيدفي غربتي ... والعبء مُضن وهمومي كبار
فأظلم القلب وضجَّ الهوى ... في كلّ ذرّات كياني وثار
ثم ذكرتُ الله،في حُبِّه ... افتراقنا، وهو لنا خير جار
فهشّ روحي واطمأنّ الرّضى ... في غور إيماني، وقلبي استنار.[5]

وفي قصيدة " درج من نور" تأجّجت مشاعره نحو أطفاله وهم من حوله فاختلط عنده شعور القلق بشعور الاشفاق، فنطق ذلك شعرا:

..

ومُزَعُ القلب وهم " تسعة " ... كدرج صيغ من النّور
طفلٌ وعبء الطّفل يوهي القوى ... أحلى المنى حفَّت بديجورِ
همٌّ له في النّفس قدسية ... أحيا به، في حلم مذعور
العقل فيهم والهوى لائبٌ ... ما بين ملهوف ومسرورِ
ضممتُهمْ في خافق متعبٍ ... بالحبّ والإيمان معمورِ
أحنو عليهم والها مشفقا ... من عالم بالبغي مسعورِ

غدوتهم روحي، وأودعتهـــم ربّي، وسلّمـت لمقدوري.[6]

وفي قصيدة "ولدي" الرّائعة، حيث تتقطّر حنّية وعطفا، وتتلألأ بهجة ورحمة، إذ هو حريص على تنشئتهم تنشئة صالحة، يغرس فيهم مثلا عليا .

يصفو ويسعد بهم وبرؤيتهم يتوثّبون ويتحفّزون فيلهج قلبه ولسانه بالدّعاء لهم، يقول:

ولدي؛ وآمالي بكـــم	تحبوكم أسمى نُعـــوتْ
لا تجعلوها واهيـــات	مثل بيت العنكبـــوتْ
شردتْ بكم، نـــزوات	أنفسكم، وأمزجة شـتوتْ
ورميت حباتِ قلـــبي	في رحى نزقٍ عنـــوت
فالعـــمر.. من لأواءِ	حُبِّيكُـمْ، وجوركم يفوتْ
تحيون بي، وأنابـــكم	في كل شاردة أمـــوت!
ولدي؛ فثوبوا، واستبيـنوا	الرّشدَ، والتزموا القنـوتْ
أرضي فأدعو جـــأرةً	لكم، وموجدتي صَمـــوتْ
وأنا على الحاليـــن أدعو	في الكلام وفي السّكـــوتْ.[7]

أمّا في قصيدة " ريحانة الله" فالأميري يقدّم لوحة فنّية رائعة لسلوكيات الصّبية وما تتركه من أثر طيّب على النّفس سواء كانت صائبة أو طائشة، فعنده هذه المتناقضة هي عين الجمال وهناء الرّوح واستكانة النّفس من الأتعاب والأحقاب .

يقول بعدما يصف في أبيات طويلة لعبهم ومرحهم وشقاوتهم وزهوهم:

كمْ ذا بَذَلْتُ حُشاشتي لَهُـــمُ	ووهبتُهمْ روحي.. وما بذلوا
وحَـرَمْتُ نفسي كُـلَّ مَطْلَبِـها	وحَبَوْتُهُمْ كُلَّ الّذي سألـوا
فَهُمُ العَـذابُ.. لـــه عُـذوبتُـه	وهمُ النّظامُ.. جمالُه الخَـلَلُ
وهمُ الهُمومُ.. تُقِضُّ مضجَعَـنَا	وهمُ الغدُ المرموقُ والأملُ
وهـمُ الهَنـاءةُ والعَنـاءُ مَعاً	فمُقامُهمْ.. وفِراقُهـمْ.. جَلَلُ
عبءٌ ..وتحمله الكواهـل في	حبّ فلا بـرم ولا ملـل
ريحانـة الله التي نبتـــت	من غرسنا والأمـر يتّصـل
حكم الإله وكلّـه حكـــم	ولكلّ حلق عنـده أجـلُ.[8]

عندما فقد أمّه تغيّرت أحواله وتداخلت الظّروف من حوله، فلم يعد للحياة طعم يبغيه أو مذاق يشتهيه فتطّلع في تلك الأجواء إلى مبادرة من أبنائه أو من أحدهم يخفّف عليه هول ما أصابه أو يعينه على تجاوز ما ألّم به من محنة عصيبة شديدة.

لكنّه لم يتلقّ إلاّ اللّامبالاة... ممّا أشعره بحزن وألم خطّه في قصيدة عنوانها "عفو الأبد "، يقول:

اذهبوا في شأنكم يا ولدي ودعوني.. غارقا في كمدي
أنتم ..تبغون غنما لكم وأنا أبذل فيكم كبدي
ولقد يثقل ظلّي بينكم ولقد يلطف ظلّي في غدي
في غدٍ يذكرني منصفكم عبثًا في لوعة المفتقد[9].

إلى أن يصل إلى طرف الحقيقة المزلزلة أمامهم، حيث ذهبت بهجة الحياة بموت الأمّ الغالية، أساس وعرصة الأسرة، فيشدو:

اذهبوا، إنّ لكم من والد لو يوفّ الحقّ، عفو الأبد
أسأل الله لكم فيض النّدى ولنفسي راحة الرّمس النّدي
لم تعد تبهجني الدّنيا.. وقد قبضت أمّي.. وأكدى بلدي.[10]

إلى أن يختمها بنصيحة غالية، لا تصدر في الغالب إلاّ من " أب" يحبّ أبناءه ويعطف عليهم، يقول:

ولدي، ما دمعة يذرفها ولد في والد ملتحد
حوّلوا الأدمع راشدا وتقًى وابتغوا مسلككم في الجدد.[11]

أما القصيدة الأخيرة في الدّيوان فخصّصها للنّصائح والتّوجيهات رغبة منه في أن يرى أبناءه قادة للأمّة و جنودا منافحين عنها العدا، يقول:

في القلب نيران .. وفي عينيّ أمسكُ ألف عبرة
تأبى الأبوّة ذرفها وببسمتي.. ألم وحسرة
ممّن هم للقلب حبّته، وللعين قرّة
ربّيتهم .. وبذرت فيهم للمعالي خير بذره
وفديتهم بالنّفس مما في الدّنى يخشى ويكره.[12]

ثمّ يوجعهم بزجرة تربوية لعلّهم يفطنوا أو يهتدوا فمشوارهم متواصل، يقول:

يا فتية آذوا أبـــــا.. أفنى ببر أبيه عـــمـــره!
حرموه بالنزق الشّرود منى الحياة المستقـــرّة
وتشاحنوا من غـير داع واشتكوا من غير عـسرة
يتذمّرون...وقـــائل وكأنّه بلـــــغ المجـــرّة.[13]

إلى أن يبيّن ويفصح لهم عن غرضه ونيّته من هذه النّصائح الغالية، فيقول:

أبنيّ.. لا تستثقـــلوا نصحي.. طريق الحقّ وعرة
إنّي لمجتهد لكم وسعي ولســـت دعيّ قـــدره
سلّمت لله الـــــــذي فطر البريّة خير فـطرة
وإليه قـــــد أسلمتـــكم ودعوته ـفي كـل زفـرة
أملي بكم ما زال وفـــرا والهمـــوم لدي وفـــرة
وستذكرون غـدا مقـالي والدّمـــوع تشوب ذكـره.[14]

هكذا تحدّث الأميري عن حالة الأب الطّبيعية والإيجابية، بشعر ينضح بمشاعر صدق الأبوّة وعطفها ومسؤوليتها فقد لمّح لذلك ـفي تقديمه للدّيوان حيث قال:

وتراءت لي خلال معاناتي الأبويّة.. ومكابدتي العربيّة الإسلاميّة الإنسانيّة... معاني.. ومقاصد... وتبعات ..

قرّرت إصدار آبّ أكفكف به عبرة.. وأسدّ به ثغرة.. وأتوخّى، فيما أتوخّى.. إعانة الأباء.. على تحمّل الأعباء.. أستدرج لهم أبناءهم.. ـفي عواطفهم.. ومواقفهم.. إلى جدد الخير...

وإعانة الأبناء على تفهّم مشاعر الآباء.. أجلي لهم مراميهم ـفي التّهذيب بين التّرغيب والتّهذيب، لتكون منهم الاستجابة.. والطّاعة، والبرّ.. ألا ما أحوج أمّتنا.. واليوم.. أكثر من أيّ يوم إلى اجتماع الآباء والأبناء.. على كلمة سواء"..[15]

ثانيا- ديوان (أمّي)

الأمّ، هي القصّة الخالدة ـفي هذا الوجود، أصل العلاقات الأسريّة ونورها وبركتها، استقرارها ودفئها، منبع الحنان، وجذر العطاء بلا حدّ، فلا غرابة أن يخصّص الأميري لأمّه ديوانا شعريّا تتداوله الأجيال فترشف من معينه وتتربّى على معانيه ودروسه، يقول ـفي غلاف الدّيوان بخطّ يده:

عرفان جميل... وسموّ
بالعاطفة الإنسانية... وممارسة في الأرض لأخلاق الجنّات العلويّة .. الأمّ..
وفي الإنشاد لها تغدو الأنغام سماويّة ... ينبوع الحبّ .. عطاء الرّبّ .. منى وجنى كل مزيّة
من برّ الأمّ، يبرّ الخير .. يبرُّ جميع البشريّة.[16]

يستفتح الأميري ديوانه بقصيدة "أمّاه" عرفانا، وردّا للجميل أو بالأحرى بعض الجميل، يقول:

أمّاه، يا روحا منيرا ... في رحى جسم، أهلّا
وعلى الثّرى، ملكا طهورا ... في ثياب "الأمّ" حلّا
وعلى جناني، من جنان ... الخلد، كالنّعمى أطلّا
قد كان كالإشراق ... يغمرني جداه، إذا تجلّى
بركات عمري من رضاه... ... وتستمرُّ...وقد تولّى...[17]

في لحظات الأنس والرّفق، تستبدّ بشاعرنا عاطفة الحنين للوالدين الكريمين، فتفيض قريحته بأبيات على الفطرة والسّجية.

كتب قصيدة عنونها:" أبي وأمي" مناديا إيّاهما بالمكانة والقدر الذي يخصّهما، يقول:

أبي وأمّي موئلي ومناري ... بكما اعتزازي في الورى وفخاري
يا شعلتين منيرتين أضاءتا ... قلبي الفتيّ بأبهج الأنوار
يا مقلتين من الكرى قد فرقا ... سهرا عليّ مخافة الأكدار
ما كنت أصب قبل ترك حماكما ... أنّي أحبّكما بذا المقدار
الله كم للشّوق عندي آية ... قد قصّرت في شرحها أشعاري.[18]

وفي قصيدة "حنين..." اعتراف بالتقصير، وطلب للصّفح والعفو وإقرار بسبب النّجاح وتحقيق الأحلام والطّموح، فهو لا ينفكّ يعيش غربته بوجدانه مع الوالدين الغاليين.. البعيدين..يقول:

زفرتُ، وفي عينيَّ نظرة لائب ... فلاحا سنى في الأفق بين السّحائب
أبي باسم، والصبر بعض وقاره، ... أمّي ترنو في تلهّف لاغب
وتدنو وتحنو، وهي تمسك دمعة ... يراها خيالي مثل ومض الحباحب

حبيبان، ما في الكون أعلى، ولا على فؤادي أغلى منهما في الحبائب
أحنّ إلى أهلي حنين متيَّم وفيّ بعيد في العوالم جائب
تؤرِّقه الذكرى فيخفق قلبه وتحتاطه الأشواق من كلّ جانب.[19]

وفي قصيدة "نافحة الهمم" تسجيل لتلك المشاعر المتدفّقة نحو الأبوين الكريمين خاصة لمّا يكثر ويطيل الغياب عنهما بسبب كثرة الأسفار والأعمال.يقول:

ما للحياة يشدّني اعصارها حتى أدورا
وأنا أكابدها وأمضي عبر فتنتها طهورا

...

رحم الإله أبي ولقّاه السّكينة والحبورا
قد كان كالطّود الأشمّ عليه كم شدّنا قصورا

...

أمّاه، في ذرّات عزمي أن أديم بك البرورا
وأغيب عنك! فللعلى حقٌّ ، وحبّكِ لن يمورا
ولأنت ملء النّفس تزدادين إحسانا ونورا.[20]

وفي قصيدة "وحيد ...بعيد" يتغنىّ الأميري بأمّه، طالبا رضاها، ذاكرا آلاءها وخيرها، موظّفا لرموز السّعادة والهناء وكلّ عناصر البرّ والخير في وصفها وذكر أحوالها وأحواله معها .يقول:

أين أمّ بعطفها وحجاها ورضاها النّصوح يذكو هناؤه
قلبها خفقة المحبّة والخير سخيّ عطاؤه ونقاؤه
كلّما أظلم الزّمان عليه هرعت نحوه، فشعّ ضياؤه.[21]

أمّا في قصيدة "أريج الأمّ" فيعبّر عن توجسه من حالتها الصحيّة واعتلالها وهو بعيد عنها، يتطلّع كل وقت وحين لأخبار تصله من الأسرة تبدّد مخاوفه وتهدّئ من روعه، يقول:

رويدا أهيل الحيّ لا تحرقوا قلبي وجودوا بأخبار يزول بها كربي
إذا كنت أهواكم وأشفق لهفة عليكم من الأيّام، بالله ما ذنبي
أحنّ إلى أمّي حنين متيّم مشوق جزوع مدنف كلف صبّ
وأستودع الرّحمن أمي وأسرتي وأحيا ونفسي في حمى صونه الرّحب

وأدعوه في غور الدّجى متضرّعا أردّد في سرّي وجهري : "ياربّي..."."[22]

في قصيدة "في الثّلاثين" ، يقدّم لها بهذه الكلمات العامرة، والغامرة قائلا: "كانت رضي الله عنها لمّاحة رؤوما، رحيمة النّفس رهيفة الحسّ، وكنت أواري عنها همومي وأداريها... وقد أوجّه بعض قصائد بثّي إليها، ولا أذلعها عليها! ومن ذلك ما أنشدته "في عتبات الثّلاثين، ليلة مولدي، وأنا أسيف حزين. "[23]...يقول:

أمّاه، قد هلّ الرّبيع يشعّ في الأكوان سعدا
وهموم قلبي قد أقامت دون أنسي فيه سدّا...
برٌّ بأمٍّ لم يجد عن محضها الإغداق بدّا
وشقيقتين.. وأسرة اتخذته دون النّاس رفدا..[24]

وهو في الغربة وتحديدا بدولة باكستان كسفير سوريا بها، تذكّر أمّه متأثّرا لفراقها والبعد عنها، وخائفا عليها من حالتها التي هي عليها فخلّد ذلك في قصيدة "بكى كياني "، يقول:

... وذكرت أمّا قد أضرّ بها اغترابي والكبر
وخشيت غائلة... ودون لقائنا بحر وبرّ
فبكى كياني لوعة والقلب ضجّ وما صبر...
ودمي تأجّج وارتعدتُ كأنّما روحي اقشعرّ.[25]

تعرّض وهو في كراتشي لحادث مرور خطير، ولكنّ الله سلّم وبعد تعافيه وراحته، تردّد في الكتابة إلى أهله وأسرته مرجّحا ألاّ يخبرهم حتى لا يصيبهم الذّعر والوجل وكذلك إشفاقا على قلب أمّه الحنون، لكنّ عمّه علم الخبر من الإذاعات فكتب له رسالة اطمئنان ومحبّة فردّ عليه برسالة شعريّة ضمّنها قصيدة "قُبلة.. وراء البحار"، مطلعها:

كتابك يا عمّاه قد هاج أشجاني وعطفك والتّحنان قد زاد تحناني
وإنّك والأهل الكرام وإن نأت ديار، لفي قلبي وروحي ووجداني

وفي آخرها يتذكّر أمّه وظلال الخير عليه، فيقول:

وبلّغ سلامي ربّة الخير والتّقى وأمّ الرّضا والصّبر والخلق الباني
أقبّل من خلف البحار عيونها وطيف دموع لاح فيها فأبكاني.[26]

وتتوالى مواضيع وجوالات الأميري في ديوانه هذا لنصل معه إلى أمّ القصائد حيث يتحدّث فيها عن مقام الأمّهات ومكانتهنّ في نفسه وكيف ينظر إليهنّ وعمق الفاجعة والمصاب بفقدهنّ .

يقول في قصيدة " ليس كالأيّام ملاذا".

واه يا صاحبي أيّ فقد عزيز أيّ رحب غال قضى اليوم نحبه؟
أمّك العفّة المصون تولّت رحلت، أغربت إلى غير أوبة
أيّ نعي بربّة الخير واه جرحه في الفؤاد ثرٌّ منبَّه
ليس كالأمّ عند من عرف الأمّ ملاذا للمرء يكشف خطبه
فإذا الخطب كان بالأمّ لم يسعفه إلاّ أن يذكر المرء ربّته.[27]

أمّا قصيدة "أمّ الخير" والتي قال مقدّما لها : "كانت كلّما تقدّم بها العمر تزداد حدبا وإيثارا، لا تثنيها عن ذلك أعراض الشيخوخة وأمراضها.. وكنت أشفق عليها لكثرة ما تحمّل نفسها من هموم.. واهتم بها من أعماق القلب والعقل والإيمان.."[28]، يقول:

أمّي وقد جازت ثمانينها واستشرفت ترمق تسعينها
الضّعف في أعصابها راجف والعمر قد أوهن تكوينها
والسّقم طوّاف بأعضائها يسعى ولا ينسى "شرايينها"
واحدودب الظهر وأعباؤها في وجهها خطّت مضامينها
أمّي وكل الخير في طبعها والبرّ قد زان لها دينها
تحمل همّي وهموم الورى والفكر لا يحصي أفانينها
فكيف لا أحملها بالحشا! لا خفّف الله موازينها.[29]

بعد وفاتها –رحمها الله– قال قصائد يستذكر طيفها ويستحضر صورتها ويستجلب أنسها وحنانها .. إنّه لا يكاد ينساها ، كيف ينساها وهي بلسم الجراح، ومفتاح الفلاح والنّجاح، يقول في قصيدة رائعة جميلة، "أفتّش عنها":

أقلّب طرفي في كل فجّ شجيّ الدّموع، خفيَّ الجنان
أفتّش عن طلعة يشرق التّقى في سناها، ويزهو الحنان
أفتّش عنها، وأنّى أراها؟! وقد أصبحت فوق كنه المكان
على روحك البرّ يا أمّتاه سلام محبّ عصاه البيان

تردّد زفرة أنفاســــــــه تحيّاته مـــا أقام الزّمـــان.[30]

إنّ الأميري شاعر مكثر في "الأمّ"، وهذا ما يفسّر لجوءه إلى نشر ديوان كامل باسم "أمّي" نسبة لأمّه الغالية، ومنها إلى كلّ الأمّهات .

كما توجد له قصائد أخرى متناثرة في دواوين أخرى سواء تلك التي نشرت أم التي بقيت مخطوطا.

في موضوع الأمّ لدى الأميري يمكن حصر العناصر الآتية:

1- الأمّ كانت كلّ شيء بالنّسبة له، أصل الحبّ والخير، عمق النّجاح والوصول، قوّة الأسرة وسرّ استقرارها ورمز نضالها وكفاحها.

2- شعره عن الأمّ تسجيل لوقع العبرات.. ومدّ الزّفرات بل واحة لفنون الحبّ والترضّي، وفرج للهموم، وعمل من أعمال البرّ، بل هو البرّ ذاته.

3- الاهتمام بالأسرة عموما وبالأمّ خصوصا نابع من قيمة السّموّ الإنساني التي تتجذّر في أعماق الشّاعر، وتسيطر على فكره ووجدانه.

4- التّغني بأمّه "الإنسان" بصرف النّظر عن ارتباطه بها من حيث صلة النسب، إكراما لسجاياها وأخلاقها ومزاياها، ولأنّها في كلّ الأحوال تستحقّ الذّكر والتّمجيد والمودّة والإكبار.

5- حديث الشّاعر عن أمّه هو حديث عن كلّ الأمّهات وما يجب في حقّهنّ من الرّعاية والاهتمام والبرّ والصّحبة الحقّة.

ثالثا- ديوان (رياحين الجنّة)

من العنوان ندرك أنّ مضمون الدّيوان في الطّفولة والأطفال وما يحوم حولهما من مواضيع وأشجان وقد سمّاه بهذا الاسم تيمّنا ببعض أحاديث الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- التي يذكر فيها أنّ الولد الصّالح ريحانة من الله.

يقول الحسن النّدوي عن الدّيوان مقدّما له: "...واليوم تثرى مكتبة الشّعر العربي الغنيّة بديوان جديد "رياحين الجنّة" وأقول هذا إثراء خير أو خير إثراء، استقبالك أرواحا سماويّة بريئة حبيبة ممّن رزقت من الأولاد والبنات والأحفاد والأسباط، نعم البيت الذي أنت سيّده، ونعمت الأسرة التي جعل الله مثلك راعيها والتي تتشرّف بأبوّتك الغالية المليئة بالحبّ والحنان.

والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه... إنّني لم أتعوّد المجاملة ولا أحسن صنعتها، ولا أعرف أصنافها وآدابها، إنّما الشّيء الوحيد الذي عرفته في حياتي هو أنّ الإخلاص لله لا يموت، والذي يذكر الله في خلواته وهمساته لن يضيّعه الله .. وتلك الرّياحين التي أنعم الله بها عليك سوف تعبق بها الأجواء الرّوحية إلى زمن طويل...".[31]

عن إحدى بناته ينشد لها ويغني، فقد حظيت عائشة غرّاء بدلال واهتمام خاصّ، فحصل أن كان شاعرنا بعيدا عن أسرته وطال غيابه فحنّ إليها، وكتب لها هذه القصيدة الجميلة:

أنا "غـــرّاء" النجيـبة حلوة الوجـــه حبيبـه
عفّة النّـــفس أبيـّه جـمّـة الظّرف ذكيّه
فذّة الفهـــم لبيـــبه لذّة النّطـق أريبــه
اقبل النّصح سميـعه افعل الخير مطيعــه
فأنا أعبـــد ربّـــي وأصلّي.. وألبّـــي
وأنا أخدم أمّـــــي بنشاط كلّ يـــــوم
تبهج الألعاب نفسي بعد أن أتقن درسـي
موطني أهوى هـواه حقّـــق الله مـــنـــاه
وأبي يملك قلـبـــــي إنّـــه نعـم المربّـي
وغرامي واهتمامي بأخي الحلو الكـــلام
ليس يحتلّ فـؤادي غـــير أهلي وبـلادي
صانهم ربّي جميـعا إنّـــه كـان سميـــعا.[32]

ترنيمة كلّها حنان وحبّ، وتوجيه رسائلها واضحة وغايتها بيّنة فهي تخليد من الشّاعر لابنته الحبّوبة، وهديّة منه إليها ولغيرها من الفتيان والفتيات ليردّدوا وينشدوا في أيّامهم هذه الأنشودة الغنائيّة بما تحمل من تربية وتوجيه نحو قيم عالية وأخلاق غالية.

فكما يتغنّى بأحد أبنائه أو إحدى بناته، فإنّه أيضا يخصّص نصيبا من اهتمامه وشعره لأحفاده وحفيداته، فهاهي ذي "نعمى" يخصّها بقصيدة ، جاء فيها:

أأبثُّ "نعمى" الشّوق أم أشكو لها وأنا اقلّب في يديّ رسومـها

أرنو إليها والجوى شاب الجوى والدّمع ملء العين يرعش هدبها
فيهزّ صورتها .. يحرّك ظلّها... فكأنّها تحبو.. وتفتح ثغرها
لتقول: "جدّو" يا لجدّ وكم هفا لعناقها وخياله كم ضمّها
متوهّج النّظرات يرمق حسنها متفتّح الشّفتين يبغي لثمها
...
ناغمتها، مذ قيل: نعمى عانقت نور الحياة، فقلت: يا .. نعمها
وثغوت في خلدي لها رغم المدى وكانّها قربي أردّ ثغاءها
وعصرت في صدري البراء وفاطما والوجد في روحي شدا وتأوّها .[33]

وعن الحفيد "حذيفة" أيضا ينشد الأميري أبياتا، حيث بشّر البراء أباه بقدوم المولود إلى الحياة، فأنشد يقول:

بارك الله بالبراء وبشرى زفّها عن "حذيفة بن اليمان"
وحبا الأسرة العزيزة منه طالع الخير والرّضا وحباني
لليمان الغالي وكندة من قلبي وحبّي أحلى المنى والتّهاني
بالوليد السّعيد أنبته الله نبات الإيمان والإحسان.[34]

ولبكر ابنته "سامية وفاء" وقد سمّوه الحسين زين العابدين، يخصّص قصيدة جميلة، جاء فيها:

حسيني وزيني والرّؤى كلّها مني وفي النّفس ما فيها من الحمد والحرق
رسومك في عيني يابن حبيبتيوفاء قد انسابت وجاوزت الورق
يحرّكها الصّدر الّذي قد بسطتها عليه، بما في قلبه من هوى خفق
حبت وربت في مطمعي وترعرعت وشبّت، وكانت بهجة الفكر والحدق
فقبلت فيها نفحة نبويّة وعزم جهاد في ملامحك ائتلق
وفاضت مع الدّمع الأبيّ ضراعة إلى الله، ما بين السّكينة والقلق
يحفّك من سواك بالصوت والرّضى ويرعاك في مسراك في كل منطلق
لتعلي مجد الله ما عشت ماضيا معاذا بربّ الخلق من شرّ ما خلق.[35]

ويتغنّى بإحداهن في مشهد بديع، يريح النّفس، ويبهج القلب، ويزيح الهموم، ويذهب الأحزان والأكدار، يقول:

تأمّلت حسنى وهي مشرقة حسنا وأبعدت عن نفسي بها الهمّ والحزنا
وأومض في قلبي بريق عيونها ونظرتها في البون جاوزت البونا

كأنّي بها قد لاحظت في امتدادها عجائب فامتدت لتكشف الكونا
وتكتنه الأسرار حفّت وجودها وترنو إلى الأغوار تستوعب الرّنى
وقد فتحت من دهشة فمها على فجاج غيوب تبهر الإنس والجنّا
...
ولم أصح إلاّ والدعاء بخافقي من الله يستعطي لها الصّون والعونا
هنيئا بحسنى يا براء وعشتما وفاطم والشبلين في الغدق الأسنى.[36]

في قصيدة أخرى تتقطّر عاطفة وأشواقا ، يردّ على رسالة "علا" بكر ابنته (الأثيرة) حيث ضمّنتها رسوما بدائية وبعض الكلمات الطفولية البريئة لتهنّئ جدّها الشّاعر بذكرى الهجرة، فكان جوابه شعرا:

أذكى وأحلى طفلة في الملا حبيبتي .. حبّة قلبي علا
رسماتك الحلوة قبّلت في خطوطها الخطاط والأنملا
وقبلات الشّوق أرسلتها ضاعفها شوق بقلبي غلا
والسّنة الغرّاء تبريكها بادلت، والدّعوة والمأملا.[37]

في لحظة عاطفيّة نادرة حرّكت مشاعر الأميري حينما خاطبت ابنته وفاء صغيرها تاج الدّين بصوت مسموع: "أمّا أنت.. فجدّك لم يفرغ لتحيّتك ولو بأبيات قليلة، فارتجل الجدّ الحنون أبياتا من وحي اللّحظة وفاجأ بها ابنته الغالية ليسعدها:

يا طلعة العيد والعام الجديد أيا تاج السّنا والدّنى والدّين دمت لنا
مغرّدا مبهجا كالفجر منبلجا بالخير فيه منّي تفوق كلّ منى
يا غرّة قرّة للعين إن عبست حياتنا لاح يسلّينا ويفرحنا
يا مالئ البيت ضوضاء محبّبة ما ضمّ آمنة أو داعب الحسنا
...
فشملكم يا حبيبي التّاج سلوته في غربة الدّهر قد زانت له الزّمنا.38

خاتمة:

مّما مرّ معنا من قصائد بلحظاتها وشخوصها فإنّه يمكننا فهم الآتي:

1- نظرة الأميري للطّفولة نظرة رسالية يطبعها التّوجيه والنّصح.

2- بخيط واضح ندرك مسؤولية الأميري في أسرته، كزوج، وكابن، وكأب، ثم كجدّ، يهتمّ بأحفاده، ويتطلّع لرؤيتهم والفرح بلقائهم والتغنّي بعالمهم الفطري البريء.

3- بقدر ما خلّد في ديوانه هذا (رياحين الجنّة) أسماء من أبنائه وأحفاده بعينها فإنّه يوجّه الآباء والأمّهات في العالمين، إلى رعاية أطفالهم وحمايتهم بتوفير البيئة الآمنة (الأسرة الناجحة) التي تيسّر لهم العبور النّاجح في حياتهم.

4- الأسرة في شعر الأميري فضاء واسع، نالت اهتماما بالغا ومقدّرا بالنّظر لأهميّتها ومكانتها وحساسيتها، و نكاد نقول أنّ شاعرنا لم يفوّت شاردة أو واردة تخصّ الأسرة وجوانبها المتعدّدة إلاّ ودوّنها وتحدّث عنها، وربّما ناقشها، وسجّل موقفه منها.

5- إنّ الأسرة تقع وسطا بين الفرد والمجتمع، ممّا يضفي عليها خصوصية وميزة، فإن اتّزن حال الأسر ورسخت قيمها ومبادئها تقوّى المجتمع واشتدّ ساعده ونجحت بذلك مسيرته وشيدت نهضته واستفاد أفراده من أثر هذه القوّة والصّلابة، وإذا حدث العكس، فالضّياع والتّخبّط للأفراد، والانتكاسة والسّقوط والانحطاط للمجتمع.

6- إنّ الأميري باهتمامه بموضوع "القرابة الأسرية" في شعره يقدّم خدمة لكلّ الآباء والأمّهات، بل وللإنسانية قاطبة في الدعوة لحماية الأسرة ورعايتها والنّضال لأجل صيانة قيمها ومبادئها.

7- إنّنا نجد الأميري يتحدّث عن دور الأب والأمّ، وقيمة البرّ بهما وحسن صحبتهما وتقدير مسؤوليتهما في تسيير شؤون الأسرة والعائلة ويتحدّث عن الأبناء ويدعو لرعايتهم وحسن تأديبهم والاهتمام بعالمهم، وإحاطتهم بكلّ عناصر التّنشئة النّاجحة.

8- يتحدّث عن عالم الطّفولة البريء بجمالياته و متناقضاته، وكيف يمكن التعويل عليه في إعداد هؤلاء الأطفال لمسيرة القيادة والرّيادة في الأوطان والمجتمعات.

الهوامش:

1الأميري، عمر بهاء الدّين، ديوان (أب)، دار القرآن الكريم، مطابع دار الفتح، بيروت، 1944، د.ط، ص:06

2الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 08

3الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 13
4الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 14
5الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 16
6الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 19
7الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 20
8الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 23
9الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 24
10 الأميري، عمر بهاء الدّين، المصدر نفسه، ص: 24
11الأميري، عمر بهاء الدّين، المصدر نفسه، ص: 24
12الأميري، عمر بهاء الدّين، المصدر نفسه، ص:26
13الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 26
14الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 27
15الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 10-11
16الأميري، عمر بهاء الدّين، ديوان (أمّي)، دار الفتح، بيروت،1978، ط1، ص:آخر الغلاف.
17الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 32-33
18الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 38
19الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 50
20الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 53-54-55
21الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 53
22الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:57-59
23الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 86
24الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 87-89
25الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 93
26الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:93-101
27الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 109
28الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 143
29الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 145
30الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص: 166-167
31الأميري، عمر بهاء الدّين، ديوان (رياحين الجنّة)، مكتبة العبيكان، رابطة الأدب الإسلامي العالمية ،1992، د.ط، ص: 41

32الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:09
33الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:18
34الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:20
35الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:21
36الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:24
37الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:29
38الأميري، عمر بهاء الدّين ، المصدر نفسه، ص:36